الاب بطرس ساره

بقلم
الأب انطونيوس شبلي اللبناني

فجعت الرهبانية اللبنانية المارونية بفقد ركن من اركانها وعَلَم من اعلامها انطوت بانطوائه صفحة مجيدة من امجادها وتوارى بتواراته ذخر وعتاد من عتادها، عنينا به رجل العلم والفضيلة والعمل الطيّب الأثر الاب بطرس ساره الذي نقله الله تعالى اليه في المستشفى اللبناني في بيروت صباح يوم الاحد الواقع في السابع من شهر تموز من السنة ١٩٦٣ الحالية عن عمر مديد ملئ بالمبرّات والمآثر التي كانت للرهبانية مفخرةً من المفاخر ، سنين طويلة قضاها بالكدّ والجدّ بمضمار العلم والدين والادب والتاريخ وكان في كل ذلك من المبرّزين المشار اليهم بالبنان الذين يتردد ذكرهم على كل لسان .

وقد نُقل جثمانه الى دير سيّدة المعونات في جبيل وسرى نعيه في الرهبانية وغيرها سريان البرق فأسف الجميع على فضله وعلمه اللذين زانه الله بهما واكبروا الخسارة فيه فراحت العيون تبكيه والالسن ترثيه . وفي يوم الاثنين التالي تقاطر رؤساء الرهبانية وجماهير اديارها وقسم كبير من الشعب ومن الاكليروس العلماني لحضور حفلة جنّازه الذي رأسه سيادة الحبرين الجليلين المطران يوحنا شديد والمطران نصرالله صفير يعاونهما قدس الآباتي يوسف طربيه رئيس الرهبانية اللبنانية العام مع مدبّريه وقدس الآباتي لويس البستاني رئيس الرهبانية الحلبية اللبنانية العام ونائب قدس رئيس عام الرهبانية الانطونية .

وبعد تلاوة الانجيل القى سيادة المطران صفير تأبيناً بليغاً عدّد فيه مراحل الراحل وآثاره وفضائله وقد قسم خطابه الى ثلاثة اقسام الراهب والعالم والصديق ووفى كل قسم حقه من التبسّط بكلام حرّك سواكن القلوب واستدرّ الدموع معزياً قدس الآباتي يوسف طربيه الرئيس العام الذي حزن عليه حزناً بليغاً طالباً من الله ان يعوّض على الرهبانية هذه الخسارة .

اكمل دروسه في كلية القديس يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت وتفوق باللغة العربية وكان يقرض الشعر احياناً وهو تلميذ وينشره في مجلة «المشرق» . ولما سيم كاهناً برز الى ميدان الجهاد والعمل في كرم الربّ ملقياً المواعظ والرياضات الروحية في القرى والمدن الكبيرة ساعياً الى استئصال شأفة الخصومات . ثمّ عيّنته الرهبانية لرئاسة الابتداء في دير كفيفان ووكيلاً بطريركياً واسقفياً في انطوش زحله. وانتدبته لتدريس تلامذتها الرهبان في دير سيدة نسيبه — عُسطا . ودير سيدة المعونات في جبيل تارةً الفلسفة وطوراً المعاني والبيان ومع العلم كان يأتّنهم الفضيلة والاخلاق الطيبة ، وقد تعلّق تلامذته بحبه لكرم اخلاقه ولطف معشره . وانتُخب ايضاً مدبراً اوّل ثم كاتماً لاسرار الرئاسة العامة . وبالرغم من كثرة اشغاله ما انقطع عن الترصيف والتأليف ونظم الشعر الرقيق الناعم كنعومة اخلاقه ورقّة طباعه وارسال المقالات في مختلف المواضيع اللاهوتية والفلسفية والادبية والتاريخية الى الجرائد والمجلّات التي كانت تنشرها بفخر واعزاز . ونقلَ كتاب « سرّ المحبة » للاب ايمار من الفرنسية الى العربية واعاد النظر في كتاب « ينبوع السلوان في زيارة القربان» للاب انطونيوس الفغالي وطبعه وفي المجلّد الثالث من تاريخ الرهبانية اللبنانية للاب لويس بليبل فضبطه وطبعه . ووضع ترجمة رجل الله الاب نعمة الله كسّاب الحرديني وقد اقتبسها عن ترجمة الاب نعمة الله القدّوم الكفري . وله مقالة فلسفية لاهوتية بليغة في وجود الله نشرها في مجلّة «العمّاني» لصاحبها الخوري اسطفان ضو في البترون .

وعندما كان يدرّس التلاميذ من اخوانه الرهبان وضع كتاباً في الفلسفة طبعه على الحلاتين ودرّسهم اياه ونحن كنا من تلامذته في صفّ الفلسفة . وله ايضاً عظات نقل بعضها من الفرنسية الى العربية جاءت تحفةً معنًى ومبنًى . وفي كل سانحة او مناسبة تتطلب النظم كان يجول في مضمار الشعر ويأتي بالقصائد الناعمات المطربات «اللابسات من الحرير جلابيا» فمنها منشورة في الجرائد والمجلّات ومنها مطبوعة على حدة وهو الذي كان ينشئ الرسالات (المناشير) للرؤساء العامين ويعهدون اليه كتابة الرسائل الخطيرة لاصحاب المقامات العالية . وظلّ الكتاب جليسه والقلم نديمه الى آخر نسمة من حياته . وآخر اثر له الجزء الاول من كتاب السنكسار الماروني الذي افرغ في ضبطه وتنقيحه كل قوته .

وجملة القول كان الاب بطرس ساره راهباً قحاً عفيفاً طائعاً زاهداً بخير الدنيا غير مكترث لطعامه وشرابه ومرقده وملبسه ولم يكن همه غير القيام بواجبه وقد تحلى بصفات طيبة اخصها وداعته وحسن معاشرته وكرم اخلاقه ووفاؤه لاصدقائه وسلامة طويته وبُعده عن الغيبة والمهاترة والثرثرة في الكلام. وكانت رزانته توجب على الناس اعتباره واحترامه. وكان خطيباً فصيح اللسان قوي الحجة والبرهان وشاعراً رقيقاً وكاتباً مُجيداً ومؤرخاً دقيقاً. وكانت تستدعيه الرهبانية الانطونية المارونية لإلقاء الرياضة السنوية على ابنائها.

اجتمعتُ به في دير مار مارون عنايا وكان هذا اللقاء آخر العهد برؤيته واتفق ان وُجد هناك مصوّر فدعوته لأخذ صورته وكان ذلك يوم الجمعة الواقع في الثلاثين من شهر ايلول سنة ١٩٦١ وهذه هي آخر صورة له وقد بدت عليه ظواهر الشيخوخة كما ترى.

ان الاب بطرس ساره هو ابن فارس يعقوب ساره وكاترين انطون الطرابلسي كلاهما من مدينة البترون.

قبلَ سرُّ العماد المقدس في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٨٧٨ في كنيسة القديس اسطفانوس — البترون — من يد الخوري يواكيم باسيل من قرية اهمر جبيل خادم الرعية. وكان العرّاب خاله يوسف انطون الطرابلسي، والعرّابة ضيا امرأة عمه جرجس ساره الملقّب ابو مرعي، ودُعي بالمسعودية باسم يعقوب اي باسم جدّه لابيه.

في شهر ايلول من سنة ١٨٩٤ دخل الابتداء في دير مار موسى الحبشي قرب قرية الدوّار — المتن — ودُعي باسم الاخ بطرس.

وفي ٢٢ ايلول سنة ١٨٩٥ بعد ان صرف السنة القانونية تامّةً في الابتداء أبرز النذور الاحتفالية امام الرئيس العام الطيب الأثر الاب مبارك سلامه الشيني الذي ألبسه الاسكيم الملائكي مع عدد من الاخوة ورفاقه وارسله الى المدرسة الرهبانية في دير مار قبريانوس كفيفان (بلاد البترون) في تشرين الاول سنة ١٨٩٥.

وفي منتصف شهر نيسان سنة ١٨٩٨ ارسلته السلطة الرهبانية الى مدرسة الرهبانية في بيروت لمتابعة الدروس في كلية القديس يوسف اليسوعية. دخل الصف السادس الى ان انهى دروسه الفلسفية واللاهوتية باجتهاد ونجاح باهر.

اما اساتذتهُ في دير كفيفان فيهم الاب نعمة الله القدُّوم الكفري للسرياني والاب ليباوس داغر التنُّوري للفرنسي والاب الياس الحُوري المشمشاني للعربي. ودرس في كنيسة القديس يوسف اللسان الفرنسي واللاتيني واليوناني على الآباء اليسوعيين ، والمعاني والبيان على الاستاذ نجيب حبيقه ، والخطابة على المعلم رشيد الحوري الشرتوني الشهير.

وفي سنة ١٩٠٩ قبل درجة الرسائلية والانجيلية في بكركي من يد المثلث الرحمة المطران بولس عوّاد.

ورقّي درجة الكهنوت بوضع يد الطيّب العين والأثر المطران بطرس شبلي رئيس اساقفة بيروت في كرسيهِ في بيروت في ١٥ تموز سنة ١٩٠٩ وكان رفيقه في الرسامة الاب مبارك حليحل الحوري البسكنتاوي الراهب اللبناني.

وفي تشرين الاول سنة ١٩١٠ — ١٩١٣ عُيّن استاذ البيان ثمَّ الفلسفة في المدرسة الرهبانية في دير سيّدة النصر — غُسطا — كسروان.

وفي تشرين الاول سنة ١٩١٤ تعيّن رئيساً على الاخوة الدارسين في مدرسة الرهبانية في بيروت — التابعين دروس الجامعة اليسوعية.

وعند نشوب الحرب الكونية الكبرى الاولى سنة ١٩١٤ نُقل هو والاخوة الدارسون في بيروت الى مدرسة الرهبانيـة في دير سيّدة المعونات — جبيل — حيث تولى ادارة المدرسة على جميع الاخوة الدارسين. وقدّمت الرهبانية مدرستها في بيروت لبعض الآباء اليسوعيين مدّة الحرب كلها.

وفي اثناء الحرب اي من ١٩١٦ — ١٩١٨ انتدبهُ السعيد الذكر البطريرك الياس الحويك هو والاب لويس الطبشي البتروني اللبناني لعمل الرسالة في الابرشية البطريركية وافتقاد المرضى والفقراء وتوزيع الاعانات المادية عليهم بقدر الاستطاعة.

وفي تشرين الاول سنة ١٩١٩ عاد والاخوة الدارسون الى مدرسة مار انطونيوس في بيروت لاستئناف الدروس في جامعة القديس يوسف كالسابق.

وفي سنة ١٩٢١ انتدبهُ ايضاً السعيد الذكر البطريرك الياس الحويك مع الاب لويس الطبشي المذكور زائرين للرهبان الانطونيين في اديارهم.

وفي سنة ١٩٢٩ تعيّن رئيساً لدير الابتداء مار قبريانوس كفيفان حتى السنة

الاب بطرس ساره

١٨٧٨ – ١٩٦٣

١٩٣٢ التي فيها كان وكيلاً ونائباً اسقفياً في انطوش مار انطونيوس زحله الى السنة ١٩٣٨ .

وفي ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩٣٨ تعيّن مدبّرًا اول برئاسة الاباتي ناسيل غانم (رويسة النعمان — الشوف) العائمة حتى ٢٠ نيسان سنة ١٩٤٤ .

وفي نيسان سنة ١٩٤٤ حتى ٢٤ ايلول تعيّن امين السرّ العام مع المرحوم الاب يوحنا العنداري (كفور العربه) الرئيس العام سنة ١٩٤٤—١٩٥٠ .

ثمّ امين السرّ الخاص مع الرئيس العام المغفور لهُ الاب موسى عازار (عينطورا المتن) سنة ١٩٥٠—١٩٥٦.

وما زال قائماً بهذه الوظيفة مع الرئيس العام الاباتي اغناطيوس ابو سليمان المتيني في ايلول سنة ١٩٥٦ .

وأُصيب بعينيه وظلّ يكتب ويطالع بالزجاج ولم يفلت الكتاب من يده حتى ذهب في سبيل كل حيّ .

انا نذيّل هذه الكلمة بقصيدتين من نظم الفقيد التالي الاب بطرس ساره الاولى نظمها اذ كان استاذاً في مدرسة دير سيّدة النصر في نسبيه — غسطا — قال تحت هذا العنوان ، وفي القصيدة بعض التلميح الى حوادث :

عاطفة البنوّة

مرفوعة الى غبطة السيّد السند والحبر الجليل المتفضل

مار الياس بطرس الحويك

بطريرك انطاكية وسائر المشرق

بعوده الميمون من مقرّه العيني جديدة تنويبن الى بكركي في ت١ سنة ١٩١٠ .

ألا هيّا الى الدار العليّه	الى بكركي مقام البطركيّه
نهاديها السلام زكيّ عرفٍ	تُحيّي حبرها اسمى تحيّه
ونحضره التهاني حافلاتٍ	بالفاظ الثناء المجديّه
ونأخذُ من بحور الشعر درًّا	ننظّمه لآلئ معنويّه

بُعَيْدَ ايابهِ الميمون تلقى بناديهِ الوفود الأَلمعيّه
تقاطر جمعهم يبدي الهدايا وما غير السلام لهم هديّه
لقد سعدت بروّيتهِ نفوس بعيد بزوغ طلعتهِ السنيّه
شكت مرَّ النوى لمّا تناءى ومذ آب استفزّتها الحميّه
تنازع قربهُ الديمان لكن بكركي لم ترد تبقى قصيّه
فجاء القلبُ مذّعياً بحقٍّ لهُ وبحقّهِ ربح القضيّه
فأسكنَ سيّدَ الدارين فيهِ بسكناهُ القلوبُ هي الحريّه

٥

أرى الديمان يا مولايَ قفرًا بلى من الذي سرجَ المطيّه
أرى فيه الربوعَ قد اكفهرّت لمرّ بُعادكم تبدو شكيّه
أخالُ الأرز يومَ نأيت عنهُ يهمُّ الى مبادلة التحيّه
فيبسط للوداع الغصن رطبًا ويبديك التحيّات الزكيّه
وقد اضحى بصوت الطير يشكو م البعاد بشدو الحانٍ شجيّه
ألا يا أرزُ لا يحزنك بُعدٌ فمنك تنوبُ ارزتنا العليّه
فريمُ أرزةٌ لبنان فيها تسامى في البلاد المشرقيّه
تنيّأ ظلّها الموموق حبرٌ لهُ في الفضل حقُّ الاسبقيّه
مآثرُ فضلهِ في كل صقعٍ على كرّ الدهور تدومُ حيّه
ولا عجبٌ فانَّ الحيَّ تحيا مآثرهُ بحكم الفاعليّه

٥

اذا ما سار في لبنانَ هبَّت الى لقياهُ أقوامٌ سريّه
وان ينوي رحيل اليمن سارت برفقتهِ الجموعُ الأَوليّه
يؤلّف وهطه من كلّ شهمٍ كريم الخلق ذي نفسٍ أبيّه
فما أوما الى الابناء حتى الى ايمائهِ ساروا سويّه
اذا ما الابن عقَّ اباه يومًا لسر الحق تلك هيَ الجنيّه
عجبتُ من الألى راموا التجافي وقد ركبوا من السلف المطيّه
وقد مالوا الى اهواء نفسٍ وضحّوا للهوى شرَّ الضحيّه
وعاثوا في أراضينا فسادًا يميلون النفوس الى الهويّه

أسفتُ على بلادٍ سار فيها ... رجالُ الشرّ يبغون الرميَّه
يصيدون النفوس بشصّ خبثٍ ... وشرّ مبادئ الكفر البذيَّه
فينفثُ خبثهم في الصدر سمًّا ... زعافاً يقتل النفس البريَّه

٥

أيا لبنان ما هذا التقاضي ... وما هذي الجموع الفوضويَّه
أيا جبلًا غدا للدين مأوىً ... حصيناً في العصور الأوَّليَّه
لِمَ أمسيتَ ترضى باضطرابٍ ... ينغّصُ فيك عيشتك الهنيَّه
فتتركُ منهلًا عذباً زلالًا ... وترتشفُ الكؤوس العلقميَّه
لِمَ تلقاك تخترقُ البلايا ... وتقضي في البلاء على الأذيَّه
ألا تدري بانَّ أبَ المعالي ... أبَ الحسنات ذا النفس الأبيَّه
يعزُّ عليه ان تبقى أسيرًا ... لاهواء وأغراضٍ دنيَّه
بني مارون هذا هو أبوكم ... لِمَ تهرون أمًّا أجنبيَّه
بني مارون هذا هو حماكم ... ومرجعكم اذا طرقت بليَّه
ألا ذكرًا لاجدادٍ كرامٍ ... فداء الدين قد ذهبوا ضحيَّه
أيا ذكر الجدود اليك أصبو ... فأضرمْ في صدورهمِ الحميَّه
ألا يا قومُ لا تغفوا بحلمٍ ... لذيذٍ دُسَّ فيهِ سمٌّ حيَّه

٥

بدارٍ بدارٍ نحو أبٍ شفوقٍ ... وراعٍ صالحٍ يفدي الرعيَّه
اذا ساء البنونُ اليهِ صنعاً ... بحلمِ أبٍ يغضُّ عن الأذيَّه
سجاياهُ الشريفةُ لن توارى ... عن الاطراء قد صارت غنيَّه
بهاء فضيلةٍ وإباء نفسٍ ... وقلب طاهرٌ وصفاء نيَّه
على ربّ العلى ألقى اتكالًا ... فلا يخشى الجنود البشريَّه
ولا يأتي لدى الاشكال حكماً ... بأمرٍ دون إعمال الرويَّه
يسلُّ من الحقيقة كلَّ عضبٍ ... تُفلُّ بهِ السيوف المشرفيَّه
وينذرُ بالحقيقة كلَّ قومٍ ... يقول حذارِ من شرّ البليَّه
وما هو بالذي ينفي قتالًا ... ولكن رام ابعادَ الأذيَّه
هو المشهورُ في حبّ التآخي ... هو المعروفُ في حسن الطويَّه

اذا رامت ذئاب الكفر سبياً وخطفاً بين أغنام الرعيّه
يهزّ عصا الرعاية من بعيدٍ فتلقاهم باصواتٍ خفيّه
قد ارتدّوا على الاعقاب ذعرًا وقد ألقوا هزيمتهم هنيّه

ه

ومن تحتَ البتول له مجنًّا تقيه من سهام شهريّه
فايليا الغيور أتى حماها فأُوتيَ أيدَ يمناها القويّه
أقام مثلها فوق الروابي يناجي البدر والشمس المضيّه
تكلّلُ رأسها العالي نجومٌ بأعلى الافق زاهيةٌ بهيّه
من الكفّين بحر الجود طامٍ يفيض على البريّة بالعطيّه
على القدمين موجُ البحر يُلفى ذليلَ الرأس يزبدُ بالتحيّه
يودّ يغوصُ لجّ البحر حتى يباديها من الدرر السنيّه
ألا يا نجمة للبحر أهدي ضياءكِ في الليال الحندسيّه
وعن لبنان موجَ الكفر ردّي فتبقى فيه خدمتكِ الشهيّه
أمريمُ في جوارك قد أقمنا فوقّي الجارَ من شرّ البليّه
أمريمُ رحمةً ببنين لاذوا بحصن حماكِ سيّدة البريّه
ألا رفقًا بلبنان ارحميه أميتي فيه روحَ «الماسونيّه»
وصوني حبنا من كل ضيمٍ ووقيه ملمّات الزمنيّه

ه

ليهنكَ سيدي عودٌ سعيدٌ وجرُّ ذيول عافيةٍ هنيّه
نسيقكَ ربنا المنّان دهرًا ويُبعد عنك غائلة المنيّه
فنغنم في جوارك جلَّ غنمٍ ندى بركاتِ يمناك النقيّه
اليكَ دعاءنا في كل يومٍ نردّده الغداة وفي العشيّه
ليحيَ الياس بطركنا المفدّى فيخزى جندُ ابليس الشقيّه

ابتهال الى العزّة الالهيّة

نظم هذه القصيدة الاب بطرس ساره في ١٩٦١ — وهي آخر ما نظمه

رحماكَ رحماكَ رب الكون رحماكا ما من مرجٍ لهذا العبد إلّاكا
انت الاله الذي فاضت عوارفهُ برًّا وبحرًا واجواء وافلاكا
انت المقيت طيور الغاب تشبعها من جود كفّك فيضاً من عطاياكا
تكسو عراها وتكفيها مؤونتها ليست تزرع للاهراء املاكا
انت الذي ألبس الازهار حليتها تذري بتاج سليمان وما حاكا
انت الذي صوّر الانسان في شبه م الالوهة ، من يا ربّ يناكا
على مثالك كوّنت الذي جبلت يداك ، أجمل بصنعٍ ، صنع يداكا
أعطيته ابنك المحبوب يخرجه من سجن ابليس من بالشرّ كافاكا
والابن اعطاهُ كأساً جاء شاربها يميلُ تيهاً بنشوى من محيّاكا
انت الشفوق المغيث العبد تنقذهُ من يحوك له بالشرّ اشراكا
أعطيتهُ الأمّ من بالطهر قد سطعت شمساً تبدّدُ بالانوار احلاكا
على رؤوس ربى لبنانها ارتفعت نحميهِ شرَّ عدوٍّ كان فتّاكا
تضيئهُ بسنا الايمان ينعشهُ يفيض فيه لرب الحق ادراكا

٥

يا ربّ قلبي ويا روحي ويا سندي رفقاً بعبدٍ بروح الحبّ وافاكا
وقفتُ قلبي على حبّك عن صغرٍ فلستُ ارضى التنائي عن محيّاكا
ان يعثر العبدُ يوماً في مسالكه تقيلهُ عثرات الضعف يداكا
انت الطريق وانت الحقّ لا جدلٌ انت الحياة وفيض النور جدواكا
على رضاكَ وقفتُ العمر عن جذلٍ يا سعد من في طريق البرّ أرضاكا
قد عفتُ دنيايَ لا اغوى بلذّتها ما لذّتي يا الهي غير نجواكا
نجوى يكون بها للعقل نور هدىً هدىً الى الحقّ من اضواه مرآكا
والقلب للخير يُلفى جائعاً ابدًا لا شيء يشبعه من دون نعماكا
في باب عفوك عبدٌ جاء ملتمساً صفح الذنوب فيا ربّاه رحماكا
من دار منفايَ لا ابغي سوى امل م الحظوى برآكَ في انوار عليّاكا

المعرّي والاب ساره

كان ابو العلاء المعرّي ناقماً على الطبيعة ، وقبل وفاته نظم هذا الشعر :

هذا جناهُ أبي عليَّ م وما جنيتُ على أحدْ

واراد ان يُحفر هذا البيت على بلاطة ضريحه ، فأضاف الاب بطرس ساره الى قول المعرّي متسائلاً :

وعلى أبي جَدّي جنى فمن المسيء الى الولدْ ؟

وعارضه بهذه الابيات وهي :

ما من مسيء انما ذا حكمُ ربّك فاتئدْ
حكمُ المنيّة شاملٌ للكلّ ليس له مردّ
واذا الحياة تناسلت بشريعة الربّ الصمدْ
برئت من الاثم المشين م وشرّفت بأبٍ وجَدْ